

خصائصُ الأسلوبِ
في خطبِ الإمامِ الحسنِ عليه السلام

Features of Style
in Imam Al-Hassan
Sermons

أ.م.د. ربّاب صالح حسن

الجامعة المستنصرية
كلية التربية / قسم اللغة العربية

Asst. Prof. Dr. Rabab Salh Hassan
University of Al-Mustansiriya
College of Education / Department of Arabic

ملخص البحث

ليس من اليسير الإحاطة بكل الجوانب الفنية والجمالية التي حوتها خطب الإمام الحسن عليه السلام، وفي الوقت ذاته ليس من العسير التنبه على وجود أكثر من ميزة جمالية بنائية وأسلوبية في تلك الخطب. وهذا ليس بغريب، فهم أهل البيان وأهل بيت مدينة علم الرسول صلى الله عليه وآله، ذلك العلم الذي لا يتوقف عند التشريعات الدقيقة للقرآن الكريم والأمور المهمة من حياة المسلمين. ولا يتوقف عند بيان مختلف القرآن ومتشابهه، بل إن علمهم امتداد للإعجاز القرآني فهم أهل الذكر الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم في الآية السابعة من سورة الانبياء ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

ويجب التنبيه على أن ما سنقدمه من ظواهر بنائية وأسلوبية لم يتقصدها الإمام الحسن عليه السلام تقصداً، بل لكونه ابن البيئة العربية وابن الأدب بشقيه الشعر والنثر والذي يمثل ديوان العرب لا بد أن يكون الإمام قد وعى كل النماذج الفنية والأدبية والتشريعية سواء الصادرة عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله أم من الخطباء الذين سبقوه أو عاصروه. ومن باب السهولة وعدمها في آنٍ واحد فلن نتطرق لكل ما تحويه الخطب من جماليات تاركين للمستزيد الخوض في تلك الجماليات، فعمق أدب الإمام سواء الرسائل أو الخطب أو الوصايا يغري بكثير من الدراسات وسيركز هذا الباب على دراسة بناء وهيكلية الخطب، والتضمين والاقتراس، والثنائيات الضدية والتوازي.

Abstract

It is not quite convenient to survey all the artistic and aesthetic concerns in Imam Al-Hassin sermons, in time, it is not of impossibility to pay heed to more one trait in these sermons, that is not of eccentricity, they are the abode of elocution and the city of prophet knowledge that surpasses the critical limits of the Glorious Quran, the drastic affairs of Muslims life and difference in the Quran; their science is a mesh in the miracle concatenation; they are the abode of the message as Allah state in the Ayat seven, Prophets Sura: If ye realize this not, ask of those who possess the Message

... توطئة ...

قام هذا البحث على مجموعة من الظواهر الفنية المنتشرة في خطب الإمام الحسن عليه السلام ومثلت محاور الدراسة وهي على النحو الآتي: دراسة بناء هيكلية البحث، التضمين والاقتراس، الثنائيات الضدية، التوازي.

أولاً: بناء هيكلية الخطب

بات من المعلوم والبديهي أن لكل نص أدبي أسلوبه الخاص في البناء كما أنه لا يخلو من الاتكاء على ما سبقه من نصوص بما يعرف اليوم نقدياً بـ (تعالق النصوص). ولا نكاد نعثر على النص المثل الذي سارت عليه النصوص التالية عليه، لظروف عديدة.

فكما كان للقوائد العربية التقليدية بناؤها الخاص بحيث أصبحت القوائد الجاهلية هي المثل الذي يحتذى من قبل الشعراء اللاحقين، كذلك الخطب، كان لها بناؤها الخاص بها وقد أدخل الإسلام على بنائها تعديلات ولوازم اقتضتها طبيعة الحياة الجديدة.

والخطبة كنص أدبي وفكري تعد سلاحاً ماضياً من أسلحة الدعوة الجديدة ومن أعمدة تثبيت راية الإسلام. وحاول الرسول صلى الله عليه وآله الإفادة من هذا الفن الراقي في نشر دعوته والحث عليها، فكانت من أبرز خصائص أدب العصر الإسلامي وسماته الفنية، أي اشتغال أدب العصر الإسلامي على الشعر والنثر معاً كما ونوعاً، وهذا ما افتقر إليه أدب ما قبل الإسلام، بل إن بعض الباحثين أنكروا معرفة العرب

للنثر الفني بالصورة التي كانت عليها في العصر الإسلامي معللاً إنكاره لمثل هذا الوجود بأن الشر يعتمد على التفكير المنطقي والفلسفي الذي لم يعشه المجتمع العربي آنذاك وإنما كان مجتمعا عاطفيا فكان الشعر أكثر تعبيراً عن مشاعره^(٢).

لقد أفاد الرسول ﷺ كونه الأسوة الحسنة في المجتمع والمثال الأسمى وقائداً للأمة من تطويع هذا الفن، لإبلاغ حكم تشريعي، أو توجيه اجتماعي أو سلوكي أو من باب الحكمة وترويض العرب للمبادئ الجديدة. وتعد خطبته الكريمة في حجة الوداع أنموذجاً راقياً لما سارت عليه خطب العصر وما تلاه من عصور، فأصبح للخطبة مبادئ وأساسيات يسير عليها الخطباء لا يجيدون عنها إلا في ظروف تقتضي اختزالاً، أو تركاً لبعض أجزاء الخطبة.

وتتكون الخطبة على وفق ما درسها الباحثون من:

١. حمد الله والثناء عليه والصلاة على محمد وآله وهذا يمثل الجزء الأول منها.
٢. عبارة أما بعد وهي تتوسط الجزء الأول وموضوع الخطبة الأساس.
٣. موضوع الخطبة بحسب ما يكتبه الخطيب.
٤. خاتمة الخطبة^(٣).

وإذا ما عدنا إلى خطب الإمام الحسن عليه السلام نجد أن المجموع الذي وفقنا الله إليه يبلغ اثنتين وثلاثين خطبة تاركين الخطب التي تتشابه إلى حد كبير فيما بينها وأدماجها ضمن خطبة واحدة لتشابه المناسبة والأسلوب والألفاظ. هذا من ناحية العدد.

أما من ناحية بنائها فقد كانت الخطب التامة أي المبدوءة بالتحميد وعبارة أما بعد يبلغ عددها عشر خطب من المجموع العام. وهناك خطب مبتور الجزء الأول منها أي تحميد الله والثناء عليه، وبدؤها بعبارة (أما بعد)، مما يدل على وجود الجزء الأول واقتطع لأسباب نبيها لاحقاً. وكان مجموع الخطب التي تبدأ بعبارة أما بعد

ثماني خطب من مجموع ثلاث وثلاثين خطبة. فإذا أيقنا أن النوع الثاني تام البناء واقتطع الجزء الأول منه لأسباب يكون مجموع الخطب التامة البناء ثماني عشرة خطبة من مجموع الثلاث والثلاثين.

يمثل البناء التام للخطبة التطور الفني والأسلوبي الذي وصلت إليه الخطب آنذاك، مثلما مثلت لوحات القصيدة العربية التقليدية الأنموذج الرسمي والذوقي للمتلقي العربي.

فحمد الله يمثل جانب الدعوة الإسلامية وما أسبغه عليها من بناء هيكل وتمثل عبارة (أما بعد) اللازمة اللغوية التي تقابل اللازمة اللغوية (فدع ذا) في بناء القصائد العربية التقليدية وكأن الخطيب بهذه العبارة يأخذ استراحة أو يهيب الأذهان لما سيكون عليه موضوع الخطبة أو يخرج من الجزء الأول إلى موضوع الخطبة بهذه اللازمة. وإذا ما تتبعنا الخطب التي خلت في بنائها من الجزء الأول سنجد أن مضامينها تعبر عن مواقف حاسمة من حياة الأمة والمجتمع العربي آنذاك.

فلو أخذنا الخطبة الثانية على سبيل المثال نجد أنها لا تتجاوز السطرين وختت من التحميد واللازمة (أما بعد) فالإمام قد ولج موضوعه مباشرة وقد يكون لذلك دواعٍ منها أن اختيار علي بن أبي طالب عليه السلام لخلافة المسلمين جاء في وقت كان فيه المجتمع العربي قد بلغ الذروة في الانفلات السياسي، والفتنة ومقتل الخليفة (عثمان بن عفان) واستئثار معاوية بالشام وتكالب المحن، والذروة في الانفلات الاجتماعي والديني.

فكانت خطب علي بن أبي طالب عليه السلام في ذلك الوقت تحديداً مكثفة ولا سيما قوله عند تولي الخلافة: ((إن الله قد داوى هذه الأمة بدوائين: السيف والسوط ولا هوادة عند الإمام فيها)). تعبيراً عما كان يعانيه المجتمع من تشتت وابتعاد عن الله

والدين. لتأتي خطبة الإمام الحسن عليه السلام لتؤكد في كثافتها اللغوية والبلاغية على سياسة سينتهجها الإمام علي عليه السلام مع الرعية فعلي باب مدينه العلم (والمدينة هنا الرسول ﷺ). لكن الباب الذي سيلج منه المتعطشون للعلم والمعرفة لا بد أن يكون علي بن أبي طالب وهذا تأكيد على تثقيف المجتمع دينياً واجتماعياً وفكرياً. فالعلم في كل جوانب الحياة لا في جانب واحد.

واستطاع بتكثيفه أن يحول المعنوي إلى المحسوس. فالعلم معنوي، والباب محسوس. والقيمة تتحول من الأفراد إلى القيمة الجمعية فكلما دخل المسلمون من خلال ذلك الباب (علي عليه السلام) إلى المدينة (الرسول ﷺ) سيكون تحضر المجتمع وصولاً إلى المجتمع المثالي الذي ينشده الإسلام. ومن هنا استلزم الظرف والموقف السياسي والاجتماعي آنذاك أن تبني الخطبة بغير جزئها الأول.

والخطبة الثالثة والرابعة والخامسة والسابعة كانت مضامينها لاستنفار الناس لنصرة علي بن أبي طالب عليه السلام لوقعتي الجمل وصفين، بمعنى أنها خطب ذات موضوعات تحفيزية حماسية لكنها ليست حماسية عاطفية جوفاء وإنما حماسية ذات عاطفة تركز الفكر والمنطق الحق والعدل ومحاربة الظلم والباطل من خلال تقديم صورة الإمام علي عليه السلام وما يحمله من صفات، ومثل هذه الموضوعات التحفيزية الحماسية لا تحتاج في بنائها إلى الجزء الأول من التحميد والثناء، إذ أن الموقف حينذاك يكون ارتجالياً.

وقد لا يكون الموضوع أو الموقف هو الذي يملئ على الإمام الحسن عليه السلام الاستغناء عن الجزء الأول من بناء الخطبة واللازمة اللغوية بل قد يكون لتغاضي الرواة وأصحاب التاريخ والسير في نقل هذا الجزء دور في إهماله لأنهم غير معنيين بنقل بناء الخطبة كاملة وإنما ما يخدم موضوعهم وكتاباتهم، فيكون اهتمام أولئك

الرواة منصباً على موضوع الخطبة ولا سيما أن مواقف العصر الذي عاش فيه الإمام الحسن عليه السلام كانت متلاحقة وسريعة والسبب الآخر والذي يبدو مقنعاً لنا أن عهد التدوين لم يكن قد بدأ بعد فكان أن نسي الجزء الأول وظل موضوع الخطبة. والذي يؤكد هذا الرأي، اختلاف يسير في بعض ألفاظ الخطبة الواحدة من راوٍ إلى آخرٍ أو من صاحب تاريخ إلى آخر.

فهذه أسباب ثلاثة تبدو مقنعة لعدم احتمال بعض الخطب بنائياً، فخطورة الموقف، وحماسية الموضوعات وتحفيزاتها، وإهمال الرواة، وبعد العهد بين الخطب وعصر التدوين أسباب تبدو مقنعة.

أما أمثلة الخطبة المتكاملة البناء فكان أبرزها خطبته عليه السلام بعد محاولة معاوية استفزازه ورد الإمام عليه السلام عليه، فحمد الله حمداً طويلاً وأثنى عليه كثيراً مما يدل على براعة لغوية عالية وكثافة صورية وحجاج قائم على المنطق والعقل والأدلة والبراهين المستمدة من القرآن ومن السنة. مما يدل على إمتلاك صاحبها ناصية الفكر والعاطفة معاً. فهو يقول: ((الحمد لله المستحمد بالآلاء وتتابع النعماء... وأشهد أن لا إله إلا الله وحده في ربوبيته ووجوده ووحدانيته حمداً لا شريك له فرداً لا ظهير له...)).

أراد الإمام الحسن عليه السلام من هذا التقديم للخطبة الوصول إلى الفكرة المركزية التي تدور حولها أغلب خطبه وهي بيان أحقية أهل البيت بالخلافة، وأن هناك من اغتصبها منهم، وكأننا به يبدأ بحمد الله بما يستحق ليصل إلى حمد الله على ما اجتباهم من تفضيل على كثير من خلقه ومن تكريم لهم بجعلهم آل النبي صلى الله عليه وآله. وبما امتحنهم الله به من مواجهة الباطل والظلم والجبروت فهم جبهة الحق والعدل: ((إنا أهل بيت أكرمنا الله بالإسلام واختارنا واصطفانا واجتباننا فأذهب عنا الرجس وطهرنا تطهيراً)).

ليبدأ من خلال هذا التقديم والتحميد إلى ذكر فضل علي بن أبي طالب عليه السلام على الناس وتعداد مآثره ومواقفه الموافقة والمتجانسة مع ما جاء به الإسلام والرسول ﷺ لنجد الترابط الواضح ما بين الجزء الأول (التحميد) وموضوع الخطبة.

فمن أهم وظائف الافتتاحيات هي الإشارة إلى الغرض العام للنص^(٤)، ومن أمثلة الخطب المتكاملة البناء خطبته عليه السلام في مسجد الكوفة لتعبئة الناس لوقعة الجمل إذ بدأها بحمد الله والثناء عليه فقال: ((الحمد لله العزيز الجبار الواحد القهار، الكبير المتعال... أحمده على حسن البلاء وتظاهر النعماء وعلى ما أحببنا وكرهنا من شدة ورخاء...)).

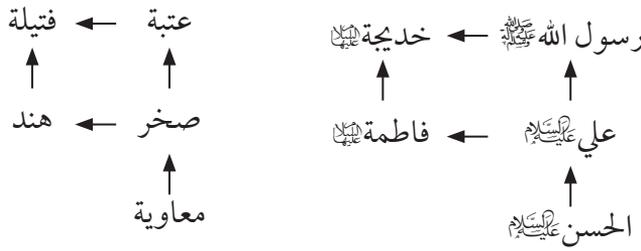
ومن ثم عبارة (أما بعد) وبعدها الدخول إلى الموضوع وكان من المفترض أن نجد نبرة خطابية حماسية تحفيزية لأن الموضوع يستوجب مثل تلك اللغة الإعلامية. إلا أننا وجدنا أن الإمام يعرض مواقف للإمام علي عليه السلام وسابقتها في الإسلام وأن الرسول ﷺ كان راضياً عنه في كل المواقف لدرجة أن الرسول ﷺ لم يغسله أحد عند الوفاة غير علي بن أبي طالب عليه السلام ليخلص إلى خاتمة الخطبة بالحكمة والدعوة إلى الالتزام بما أوجبه الله تعالى على خلقه ((فعليكم عباد الله بتقوى الله وطاعته والجد والصبر والاستعانة بالله والخوف إلى ما دعاكم إليه أمير المؤمنين...)).

وهكذا يتبين أن هناك تبايناً في بناء هيكلية الخطب عند الإمام الحسن عليه السلام بسبب من الأسباب التي ذكرنا. ونعود هنا للتذكير بها من أن إهمال الرواة لذكر الجزء الأول من الخطبة، أو لخطورة الموقف الذي يعالج فيه الإمام عليه السلام موضوعه، أو ضياع قسم من الخطبة لعدم وجود التدوين وهذا ليس بغريب في الأدب العربي إذ وجدنا كثيراً من القصائد الغزلية قيل أنها مقدمات لقصائد مدحية أو هجائية، أو نجد قصائد مبتورة غير متكاملة البناء قيل أن جزءها الأول قد ضاع وهناك مقدمات

وضعها الرواة أنها لقصائد ضاع جزءها الأول لتلائم بناء القصائد التقليدية كالمقدمة الخمرية الغزلية التي وضعت لقصيدة حسان بن ثابت في فتح مكة^(٥).

أما في ما يخص النفس الأدبي للخطبة في طولها وقصرها فقد تباينت الخطب ما بين القصيرة الطول والمتوسطة والطويلة جداً نسبياً وهذا مرده أيضاً لطبيعة الموضوع الذي يعالجه الإمام الحسن كما لاحظنا في الخطبة الثانية والثالثة والخامسة والسابعة، والخطب التي قالها في تقريع أهل الكوفة بعد طعنه وانتهاج رحله وخذلانهم له. ففي أحدها يقول: ((يا أهل العراق اتقوا الله فينا فإننا أمراؤكم وضيغانكم ونحن أهل البيت الذين قال الله فينا ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾)). أو قوله فيهم: ((يا أهل العراق لو لم تذهل نفسي عنكم إلا لثلاث خصال لذهلت: مقتلكم أبي، ومطعنكم بغلتي وانتهاجكم ثقلي أو ردائي عن عاتقي وإنكم قد بايعتموني أن تسالموا من سالم، وتحاربوا من حاربت)). فطبيعة الموقف وخطورته والنبرة الغاضبة لما فعله أهل الكوفة به جعلته يقصر خطبته لا عياً ولكن كي لا يتجاوز حدود الأدب الكلامي معهم، ومعروف عنه عليه السلام الخلق الكريم والتأدب في الكلام.

ومنها خطبته في الرد على معاوية بعد سبه لعلي بن أبي طالب فغضب الإمام ورد عليه قائلاً: ((أيها الذاكر علياً أنا الحسن، وأبي علي، وأنت معاوية وأبوك صخر وأمي فاطمة وأمك هند وجدي رسول الله صلى الله عليه وآله، وجدك عتبة بن ربيعة وجدتي خديجة، وجدتك قتيلة فلعن الله أحمِلنا ذكراً والأمننا حسباً وشرفاً قديماً وحديثاً)). فالإمام أقام موازنة نسبية، اجتماعية، إيحائية بينه وبين معاوية ليصل إلى اللعن على من هو أقل ذكراً وأقل نسباً وأقل إيماناً:



تبدو القضية محسوسة إذ أن اللعنة ستلحق بمعاوية لأن نسب الحسن عليه السلام يمتد إلى الرسول ﷺ وأن أمه فاطمة بنت سيدتنا سيدة العالمين وجدته خديجة أول النساء إسلاماً، ومعاوية ابن صخر طليق ابن طليق لم يسلم هو وأبوه إلا بعد الفتح وجده مات مشركاً وأمّه هند بنت عتبة وفتيلة كانت من أصحاب الرايات قبل الإسلام.

وهناك خطب متوسطة الطول تباين موضوعها ما بين بيان أحقية أهل البيت عليه السلام في الخلافة، وما بين الرد على مستنكري الصلح أو بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام وبيعة الناس له. كأنه يبين البرنامج السياسي الذي سيسير عليه.

أما الخطب الطويلة بحيث قامت على مبدأ التقابل والموازنة والثنائيات الضدية وعلى أسلوب الاحتجاج العقلي والنقلي من القرآن والحديث، فإنها كانت رداً على استفزازات قام بها معاوية بن أبي سفيان، أو رجالات بني أمية ومنها خطبته الأخيرة والخطبة السابعة والعشرون التي تكاد تكون رديفاً للخطبة الثانية والثلاثين، وقامت هذه الخطب على موازنات وتقابلات، ليعجب، أو ليقرر حقيقة أن من يعيبه وينتقص منه هو أقل منه وأحط قدراً ونسباً وإيماناً. أما خواتيم الخطب عنده فقد تنوعت أيضاً فقد يختمها بآية من آيات الذكر الحكيم ونجد هذا كثيراً في خطبته لاستنفار الناس لوقعة الجمل إذ قال في خاتمتها ((فانصروا الله ينصركم)).

وكانه يجعل الترابط البنائي والفكري متماسكاً وحدوياً إلى آخر كلمة في الخطبة فهذه الآية المباركة شديدة التعلق بموضوعه نصر الإمام علي عليه السلام وكان من ينصر

الإمام عليه السلام ينتصر لله سبحانه وتعالى ومن ينتصر لعلي بن أبي طالب عليه السلام ينتصر للحق وهذه مركزية الخطب ومحاوريتها الفكرية.

ويختم خطبته التي كانت عند احتضار أمير المؤمنين عليه السلام وبيان الإمام الحسن عليه السلام ما لهم من مكانة واصطفاء وفضل فإنه ختمها بالآية المباركة ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَ بَعْدَ حِينٍ﴾^(٦) فالناس في رأي الإمام وإن جهلوا حقهم اليوم فلا بد أن يعرفوا ما هم عليه ولو بعد حين. بعد أن يذوقوا البلاء ويستشعروا الفساد في كل مكان.

أما في خطبته التي قالها عند بيعة الناس له، فإنه ختمها بقوله تعالى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾. فارتباط الإيْمان وارتباط الخير بالإيْمان يجب أن يكون مرتبطاً بالتمسك بالنهج الحق وهو بلا شك نهج أهل البيت عليهم السلام كما يرى الإمام الحسن عليه السلام.

ويختم خطبته التي قالها بعد الصلح عند معاوية ((وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين)). فهناك ربط واضح بين أجزاء الخطبة دون انفصال. والقارئ المتمعن يكتشف أن الخطبة تقوم على وحدة موضوعية فنية متكاملة وإن خلت من بعض أجزائها لسبب من الأسباب، فالإمام عليه السلام يرى أن الصلح الذي تم بينه وبين معاوية إنما هو فتنة ومتاع في آن واحد؛ فتنة للذين ظلوا في حيرة من أمرهم لما قبل الإمام الحسن عليه السلام الصلح وهو صاحب قضية ومبدأ. والصلح متاع للذين سعوا إليه من الذين يريدون عرض الدنيا وزخرفها.

وفي تقرير أهل الكوفة بعد انتهاب رحله وطعنه فإنه يختم خطبته بالآية ﴿إِنَّا نُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ليعين لهم أنه من أهل بيت النبوة وأهم أخطأوا بحقه. وفي خطبته الأخيرة ختمها بقوله تعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمْرُنَا مَتَرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾. ليؤكد حقيقة أن الأمر إذا خرج من أيدي

أصحاب الحق فهو إلى سفالٍ وخراب، وأن الله يغري أكابرها بالترف والطغيان والجبروت ليأتي عذابه بغتةً.

وقد يختم خطبة بحديث الرسول ﷺ، ليشكل جزءاً من حلقات الحجاج والمنطق الذي اتبعه الإمام مع الناس. ففي خطبته التي قالها في تقريع أهل الكوفة وأنهم سيقاتلون مع الكافر الذي لم يؤمن بالله الا خوفاً من الإسلام ويقصد معاوية بن أبي سفيان فإنه ختمها بحديث الرسول ﷺ ((لو لم يبق لبني أمية إلا عجوز درداء لبغت دين الله عوجاً)) ليدلل على خطئهم بحقه وبحق الإسلام بخذلانهم له. وعندما توفي الإمام علي عليه السلام بضربه ابن ملجم، يخطب الإمام الحسن عليه السلام في نعيه فيختم خطبته بحديث للرسول ﷺ ((إن الامر يملكه اثنا عشر إماماً من أهل بيته وصفوته ما منهم إلا مقتول أو مسموم)) ليؤكد بذلك أن الإمام علياً عليه السلام اجتمع على قتله السيف والسم. وقد يختم خطبته بالحكمة كما في خطبته رداً على معاوية ((لم يندم من ركب الحق وقد خاب من ركب الباطل والحق يعرفه ذوو الألباب)).

وقد تكون خاتمته فيها وعظ ونصح كما في خطبته عند استنفار الناس لوقعة الجمل فإنه ختمها بقوله ((فمروا بالمعروف وانهاوا عن المنكر واحضروا بما يحضر به الصالحون))، وقد يختمها بالدعاء والاستغفار. كما نلاحظ ذلك في الخطبة السادسة إذ ختمها بقوله ((عصمنا الله وإياكم بما عصم به أوليائه وأهل طاعته وألهمنا وإياكم تقواه... واستغفر الله لي ولكم)).

وقد يترك الخاتمة أو النهاية مفتوحة لتكون جزءاً من موضوع الخطبة العام. والخاتمة تأتي في أغلب الأحيان مختصرة موجزة مكثفة تحتزل الموضوع بعامتة ليترك للمتلقي والسامع تأكيداً على الترابط الواضح ما بين أجزاء الخطبة بصورة عامة. وعلى الرغم من أن هذا الإطار العام لبناء الخطب قد يبدو أنه يحدد الأديب

أو الخطيب، إلا إننا نجد بداخله فضاءً رحباً أطلق الإمام عليه السلام فيه العنان لفكره وحججه ولسانه.

هذا من ناحية الإطار العام للخطب. أما فيما يخص مضامين تلك الخطب والموضوعات التي تناولها الإمام الحسن عليه السلام فإننا قد نجد لأول وهلة أنها موضوعات متعددة ومتشعبة فمرة تكون في تقرير أحقية الخلافة وفضل أهل البيت عليهم السلام كما في الخطب الأولى، ومرة في تحفيز الناس وتعبئتهم للقتال، ومرة في نعي أمير المؤمنين عليه السلام ومرة في بيان برنامجه السياسي بعد بيعة الناس له، ومرة في بيان أسباب جنوحه للسلم مع معاوية ومرة في تقرير وهجاء أهل الكوفة وأخرى في الرد على من يحاول استفزازه.

وقد بينا عند جمع الخطب المناسبة التي قال فيها الخطبة. لكن ما أن نقرأ الخطبة أياً كانت مناسبتها إلا ووجدنا أنها تدور حول فكرة محورية تركز عليها الخطب الأخرى، ولا يمكن أن تثني تلك الفكرة وهي أفضلية أهل البيت عليهم السلام على الناس وأحقية علي وبنيه في الخلافة. بل لو أن الناس أطاعوهم وأطاعوا الله ورسوله ﷺ: ((لأعطيهم السماء قطرها، والأرض بركتها، ولما اختلفت في هذه الأمة سيفان ولأكلوها خضراء خضرة إلى يوم القيامة...)). فالمناسبات والمواقف متباينة والفكرة التي يعبر فيها الإمام الحسن عليه السلام عن تلك المواقف واحدة لبيان الترابط المصيري والوجودي والأخروي بين ما يصيب الناس من بلاء وجهد وبين وجود أهل البيت عليهم السلام بين هؤلاء وهو وجود رحمة ونعمة.

ثانياً: الاقتباس والتضمين

أ) الإقتباس

ومن الظواهر اللافتة في خطب الإمام الحسن عليه السلام وتعد جزءاً من بناء هيكليتها اتكاؤها على ضرب من ضروب الفنون البديعية ومحسن من المحسنات البلاغية. وهو الاقتباس عند أهل البلاغة: «أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن الكريم أو الحديث لا على أنه منه»^(٧) وهو ضربان: مباشر بأن ينقل المقتبس النص (القرآني، النبوي) بحذافيره، وخلافه ما كان غير مباشر^(٨). وقد ضمن الإمام الحسن عليه السلام خطبه كثيراً من النصوص القرآنية وبلغت نحو (٣٦) إقتباساً تاركين النصوص المكررة في عدد من الخطب. ومن الأكد «أن الألفاظ المقتبسة من القرآن أو الحديث تزيد الكلام قوة وبلاغة»^(٩).

ونزيد حجةً إن كان في موضوع الحجاج العقلي والمنطقي كما هي الحال في خطب الإمام الحسن عليه السلام الذي تعرض لمواقف استدعته أن يضمن كلامه آياً من الذكر الحكيم تكون شاهداً بينه وبين المعاندين وحجة له عليهم. وكان الاقتباس في الأعم أن يفيد من النص القرآني بصورة مباشرة، وغير مباشرة وكان عدد النصوص القرآنية التي أفاد منها بصورة غير مباشرة لا تتجاوز ستة نصوص من مجموع ستة وثلاثين نصاً قرآنياً.

ومن المعلوم أن الاقتباس المباشر خير من الاقتباس غير المباشر ولا سيما في الجدل والحجاج والمنطق. وكانت مواطن اقتباس الإمام الحسن عليه السلام إما أن تأتي في أوائل الخطب للتحميد والثناء عليه كما في خطبته لاستنفار الناس لوقعة الجمل ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾

(الرعد ١١). وقوله لجيشه لاستنفارهم لقتال معاوية: ((إن الله كتب الجهاد على نفسه وسماه كرهاً)). والملاحظ أن هذه إفادة غير مباشرة وإنما هي إشارة لقوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ (البقرة ٢١٦) أو يأتي الاقتباس خاتماً به خطبته كما بينا في بناء هيكلية الخطب.

وقد يأتي الاقتباس في الحجاج والجدال وهو الكثير وقد اقتبس بعض الآيات النازلة في علي وفي أهل البيت (عليهم السلام)، أو عندما يقرر حقيقة ما تخص جديلاً أو إقامة حجة. كما بين عندما كرم الله المسلمين الأولين، إلا أنه خص ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (١٠) ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (الواقعة ١٠-١١). فالسابقون أولهم علي بن أبي طالب (عليه السلام)، أو يقرر أن الخليفة من بعد الرسول ﷺ هو علي بقوله تعالى ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ والشاهد هنا علي بن أبي طالب (عليه السلام). أو بيان أنهم أهل بيت النبي ﷺ فالنبي ﷺ لم يباهل بغيرهم ونزل قوله تعالى تصديقاً لذلك ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران ٦١). فأبناء الرسول ﷺ الذين أخرجهم للمباهلة هم الحسن والحسين (عليهما السلام) ونساؤه فاطمة الزهراء (عليها السلام) وأنفسنا الرسول ﷺ وعلي (عليه السلام). وهكذا بقية النصوص القرآنية الكريمة التي أفاد منها الإمام في توكيد قضيته وإلزام الحجة على كل مناوئيه. وجاءت اقتباسات الإمام الحسن (عليه السلام) من الحديث النبوي الشريف بالمرتبة الثانية بعد القرآن الكريم فقد كانت اقتباساته اثني عشر حديثاً نبوياً شريفاً. وقد تكون هناك أسباب أي أن اقتباس الإمام (عليه السلام) من الحديث النبوي كان بنسبة أقل. وذلك لأن الحديث عرضة للتكذيب والطعن والتشويه، في حين أن النص القرآني لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لذلك كان اتكاء الإمام الحسن (عليه السلام) على النص القرآني أكثر من اتكائه على النص النبوي.

وتنوعت المواطن التي أفاد منها الإمام من الحديث؛ منها في تقرير فضل علي عليه السلام وأن من أراد الوصول إلى الرسول ﷺ لا بد له من المرور بعلي عليه السلام ((أنا مدينة العلم وعلي بابها)). ومنها في تقرير أحقية أهل البيت ﷺ بالأمر ((تركت فيكم الثقلين القرآن وأهل بيتي عترتي ما إن تمسكنم بهما فلن تضلوا بعدي أبداً)). أو يشير الإمام عليه السلام إلى ما يلاقه أهل البيت ﷺ من التعذيب والقتل والتنكيل فأشار إلى حديث رسول الله ﷺ: إن الأمر يملكه اثنا عشر إماماً من أهل بيته وصفوته ((ما منا إلا مقتول أو مسموم)).

وبيان أن الأمة التي تولي أمرها لمن هو أدنى وفيها الأعلم ستكون عاقبتها إلى خراب. فاستشهد بحديث الرسول ﷺ ((ما ولت أمة أمرها رجلاً قط وفيهم من هو أعلم منه إلا لم يزل أمرها يذهب سفالاً حتى يرجعوا إلى ما تركوا)). أو يقتبس من أحاديث الرسول ﷺ في لعن بني أمية عامة وأبي سفيان ومعاوية خاصة ومنها للتمثيل لا الحصر: ((لو لم يبق لبني أمية إلا عجوز درداء لبغت دين الله عوجاً)).
وقوله: ((اللهم العن الراكب، والقائد، والسائق)).

↓ ↓ ↓
أبو سفيان معاوية عتبة

وهكذا تنوعت مضامين الاقتباس ومواطنه بما لا يجعله فناً تزيينياً معبراً عن ترف فكري بقدر ما كان جزءاً لا يتجزأ من موضوع شكل محور خطب الإمام الحسن عليه السلام.

ب) التضمين

والعنصر الآخر الذي ما إن يذكر الأول إلا ويذكر فهو (التضمين) ليقال

الاقْتباس والتضمين «أن يضمن الشعر شيئاً من شعر الغير، مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء»^(١٠). ويمكن أن يسحب هذا الكلام على النثر فيكون للنثر أن يضمن خطبته أو رسائله شيئاً من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن معروفاً من البلغاء.

وقد أفاد الإمام الحسن عليه السلام من الأبيات الشعرية فضمن خطبه شعراً في خطبتين: الأولى كانت في الدعوة لنصرة الإمام علي عليه السلام واستشهد بشعر العباس بن مرداس وشكل هذا البيت خاتمة للخطبة. والموطن الثاني في الخطبة الأخيرة في الرد على معاوية وعتبة والوليد بن عقبة وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة. والمفارقة هنا أن الإمام عليه السلام استشهد بشعرهم لإقامة الحجّة عليهم. فقد استشهد بشعر لمعاوية قاله وقد همّ أبو سفيان أن يسلم فرده معاوية بأبيات شعرية تدل على عدم إيمانه. واستشهد بشعر لعمر و ابن العاص قاله عندما عزم على الهجرة إلى الحبشة لرد المسلمين الذين هاجروا خوفاً و فرقا من قريش. واستشهد بأبيات قالها حسان بن ثابت في علي عليه السلام وفي الوليد واستشهد بشعر لنصر بن حجاج الذي فضح فيه عتبة بن أبي سفيان. وهكذا تنوعت مضامين ومواقف الإقتباسات والتضمينات مشكلة مرتكزاً أساسياً من مرتكزات البناء الفني لخطب الإمام الحسن عليه السلام.

عدد الخطب	٣٢
اقتباس قرآني	٣٦
اقتباس حديث	١٢
تضمين شعر	٥

ثالثاً: الثنائيات الضدية

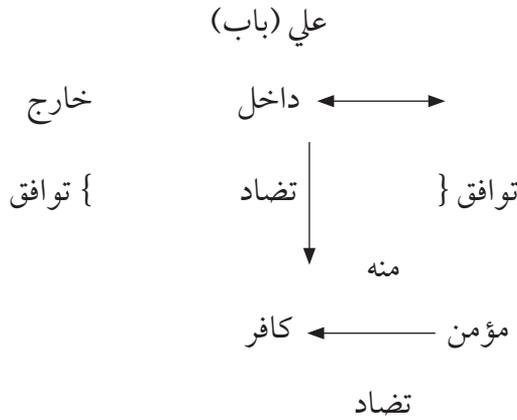
إن هدف الدراسة هنا التأكيد على الظواهر التي شكلت محوراً فنياً بنائياً أو أسلوبياً. ومادامنا قررنا حقيقة أن الخطب جميعها تدور حول فكرة مركزية واحدة هي علي بن أبي طالب عليه السلام واغتصاب الحق العلوي، فإن الإمام الحسن عليه السلام قد عرف وهو ابن البيئة العربية وسليل البلاغة المستمدة من الإعجاز القرآني أن هناك بعض الأساليب الفنية والبلاغية تؤدي دوراً عمودياً هريماً للوصول إلى درجة الصفر في تحريك النص نحو الذروة، وإحداث الانفعال المطلوب سواء كان المتلقي من أنصاره أم من الذين يقيم النص الحسن الحجة عليهم.

ويجب التأكيد على أن هذه المعرفة لا تقود إلى تعمد استعمال تلك الأساليب والفنون لكنها تأتي عفو الخاطر لتشكل ظاهرة غير مملوكة لأن الموضوع الذي يعالجه الإمام عليه السلام قد يضطره إلى استعمال بعض الفنون أكثر من غيرها، ومن ذلك الثنائيات الضدية، أو ما يطلق عليها في علوم البلاغة (بالطباق)، وهو من الفنون البديعية المهمة التي اتكأ عليها النص الحسن في إقامة حدوده الموضوعية والأسلوبية.

وقد عرف الطباق على أنه «الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة، أو البيت من بيوت القصيدة مثل الجمع بين البياض والسواد»^(١١). ويعرفه صاحب الإيضاح بأنه «الجمع بين المتضادين المتقابلين»^(١٢). وقد اتفق البلاغيون على تعريفه^(١٣).

ويجب التأكيد على أن ورود ظاهرة ما في نص ما لا يعني بالضرورة تعمل الأديب، أو اصطناعه لها، أي كان الأدب الذي يكتب فيه وتكلفه في إبراز الظاهرة بل قد يكون للموضوع الذي يكتب فيه والفكرة التي يعبر عنها دور في إبراز هذه

الظاهرة أو تلك ويشكل الطباق وظيفه موضوعية دلالية موسيقية وهذا ما سنحاول التعرف عليه من خلال ما ورد من طباقات في الخطب الحسنية التي لجأ إليها الإمام عليه السلام لعقد موازنات وتقابلات لكنها لم تكن طباقات مستكرهه أو مستهجنة أو متكلفة. «فجمالية الطباق تأتي من وروده بلا تكلف ولا استكراه للألفاظ حتى تكون المعاني هي التي تقود إلى أصدادها لتوسع المعنى وتعززه في النص»^(١٤)، وإذا قرأنا هذا المقطع من نص الإمام الحسن عليه السلام الذي يقول فيه: ((إن علياً باب من دخله كان مؤمناً ومن خرج منه كان كافراً)) نلاحظ أن هذا المقطع والذي يعد ركيزة موضوعية في بيان أحقية علي بن أبي طالب عليه السلام في الخلافة، من خلال بيان مدى سعة علمه وعمقه وهي الفكرة التي أراد الإمام عليه السلام توصيلها إلى المتلقي. هذه الركيزة الموضوعية قائمة على ثنائية ضدية هي الإيمان والكفر، والدخول إلى الإيمان أو الخروج منه ويمكن توضيح هذه الثنائية من خلال المخطط الآتي:



بل أن هذه الثنائية حددت فكرة موضوعية دلالية بانحسار ما هو معنوي (العلم) بشخصية محددة عبر عنها بالمحسوس (الباب). ويؤكد الركيزة الموضوعية والمحورية في كل الخطب من خلال ثنائية ضدية أخرى بعقد موازنة بين علي

والآخرين دون أن يحدد من هم الآخرون. وإنما أشار إليهم بالضمير (هم)، أو بلفظة الناس. وهذا الاستخدام فيه بلاغة وقوة أكثر لأنها تتيح لذهن المتلقي أن يفكر من هؤلاء، وما هي صفاتهم ليصل الحسن عليه السلام من خلال هذه الثنائيات الضدية إلى الموضوع الأوحى في الخطب وهو أحقية علي وبنيه في الخلافة وبأنهم أولى الناس بأنفسهم بعد الرسول ﷺ. ومن ثم ليؤكد على تلاشي صورة (هم) أمام صورة علي بن أبي طالب عليه السلام فنلاحظ قوله: ((... فقرب منه، وهم متباعدون وصلى معه وهم مشركون، وقاتل معه وهم منهزمون، وبارز معه وهم محجمون، وصدقه وهم يكذبون...)). ولنؤكد هذه الثنائية نرسمها بالمخطط التالي:

		تضاد		
	هم (الناس)	متباعدون	قرب ←	علي بن أبي طالب عليه السلام
		تضاد		صلى (مسلم)
			←	
	توافق	→	تضاد	←
		منهزمون	←	قاتل
			تضاد	
		محجمون	←	بارز
	↑		تضاد	↑
	↑	يكذبون	←	صدق
	↑			↑
----- ◀ تضاد ▶ -----				

فعلى ضوء هذه الموازنة يكون علي بن أبي طالب عليه السلام أول الناس تصديقاً بالرسول صلى الله عليه وآله وأولهم صلاة، وقراءة، وجهاداً، ومبارزة فهو أحق الناس بالأمر إذن من غيره، فشكل الطباق هنا ثنائية تقابلية قائمة على الموازنة والتضاد، ومن هنا تتأتى القيمة التعبيرية له أي من التقابل الثنائي. ليحقق فكرة موضوعية ودلالية وموسيقية. وساعد التوازي التركيبي على إظهار مقدرة الطباق على تمحور المضامين الفكرية التي أراد الإمام الحسن إيصالها.

ولأننا قررنا أن الخطب الحسنية تعبر عن مضمون فكري محوري، فإن ما سيأتي من ثنائيات ضدية سيكون لمصلحة إبراز ذلك المحور الفكري الموضوعي. ففي خطبته في نعيه الإمام علي عليه السلام يقول: ((لقد فارقكم رجل ما سبقه الأولون ولا يدركه الآخرون... فيقاتل جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره...)).

إن الإمام الحسن عليه السلام يؤكد على سابقة علي بن أبي طالب عليه السلام في الإسلام وإنه أول الناس إسلاماً، بل لا يدركه من دخل معه الإسلام ويعبر عنهم بـ (الأولون) ولا يستطيع الدنو منه (الآخرون) ليقرر حقيقة أخرى أن ليس كل من أسلم أولاً يعني أنه ملتزم بروح الإسلام بدليل قوله ولا يدركه الآخرون على اعتبار أن الذين دخلوا في الإسلام بعد الهجرة قد يكونون أكثر التزاماً بروح الإسلام وتعاليمه من الذين دخلوا فيه قبل الهجرة. إن هذا السابق للإسلام سخر له الله ملكين ليفتح على يديه بالنصر والعزة، فيقاتل جبرائيل (عن يمينه)، ويقاتل ميكائيل (عن شماله) يؤازرانه في فتوحاته وفي حربه ضد الشرك والمشركين

توافق

علي عليه السلام

الأولون ← الآخرون

↑ لا يدرکه ↑

----- تضاد -----

توافق

علي عليه السلام

يمينه ← شماله
جبرائيل ميكائيل

↑ ↑

----- تضاد -----

لقد حققت الألفاظ المتضادة زخماً دلاليّاً تكشف عن مقدرة لغوية وفكرية يمتلك ناصيتها الحسن بن علي عليه السلام. ويقول عليه السلام في موضع آخر مؤكداً الفكرة المحورية للخطب وإن تغيرت عنواناتها الخارجية: ((وهو صاحبكم وعدوكم في بدر وأخواتها)).

إن النص الحسيني هنا يعقد ثنائية ضدية للإمام علي عليه السلام مع أعدائه والعدو معرف أصلاً (بكاف الخطاب) والمقصود معاوية بن أبي سفيان، والمفارقة إن صاحب هنا لا تعني الصديق الذي يقف إلى جنب صديقه وإنما صاحب هنا المبارز الذي يخرج للذي يطلب منه المبارزة فينتصر عليه ليتحول الصديق إلى عدو والكفؤ لرجالهم، فيحصل كسر التوقع الذي هو حاصل أصلاً. فعلي عليه السلام هو عدو لهم في الحالين لأنه بارزهم لشركهم وأصبح عدوهم لقتله فرسانهم وشجعانهم

توافق

صاحبكم ----- علي عليه السلام ----- عدوكم

↓

↓

----- تضاد -----

ويقول: ((... إن الذي شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين وأنت يا معاوية بهما كافر... وهل تعلمون أنه بايع البيعتين وأنت يا معاوية بإحداهما كافر وبالأخرى ناكث... إنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن راية المشركين مع معاوية ومع أبيه...)).

هذه الموازنة الضدية القائمة على التقابل والتضاد خلقت كثافة لغوية وأسهمت في إبراز محورية المضامين الموضوعية للخطب الحسنية.

تضاد

صلى ← كفر

علي عليه السلام تضاد

توافق بايع ← ناكث معاوية → توافق

↑

تضاد

↑

↑

راية الشرك

←

راية الأيمان

↑

↑

----- تضاد -----

↑

وبعد أن أقام الإمام الحسن عليه السلام ثنائيات ضدية لبيان أفضلية علي بن أبي طالب عليه السلام يؤكد أن السلب للحق العلوي ظل مستمراً بعد وفاة علي بل أن استمرار نهج الحق ظل مع أولاد علي فيها هو بيني نصه على بيان ما لهم من حضور إيماني واجتماعي وديني من خلال تبيان أن رضا الله من رضا الرسول صلى الله عليه وسلم، وسخط الله من سخط

الرسول ﷺ، وبالتالي فإن من يرضي أولاد الرسول ﷺ يرضي الرسول ﷺ ومن يسخط أولاد الرسول ﷺ يسخط الرسول ﷺ فينالهما إما رضا الله برضا الرسول ﷺ، أو سخطه بسخط الرسول ﷺ.

الرسول ﷺ (أولاد الرسول ﷺ)

رضا ← سخط

توافق تضاد توافق

توافق توافق

الله

رضا ← سخط

تضاد

بل يؤكد من خلال ثنائية ضدية أخرى أن الله هدى الناس بمحمد ﷺ. وأعزهم بعد أن كانوا أذلة، وكثرهم بعد أن كانوا قلة إكراماً للنبي محمد ﷺ وهو جد الحسن عليه السلام الذي يفتخر هنا ويحق له مثل هذا الفخر الذي لا يدانيه فخر يقول: ((إن الله تعالى هداكم بجدي وأنقذكم من الضلالة... واعزكم بعد الذلة وكثركم بعد القلة)).

	تضاد		
	هدى ←	ضلالة	
	تضاد		
المشركون	الرسول ﷺ ←	الذلة	
	توافق ←←	→→ توافق	
	تضاد		
↑	الكثرة ←	القلة	↑
↑			↑
↑			↑
↑	تضاد -----		↑

ويعود الإمام عليه السلام في خطبة أخرى، ليؤكد على أنهم (أهل البيت عليهم السلام) شجرة يجب على كل مسلم التمسك بها، أو أن يتعلق بغصن من أغصانها للنجاة وإلا فإنه سيهوى إلى النار ليعيد بهذا النص مركزية الخطبة التي يقول فيها ((أن علي باب من دخله كان مؤمناً ومن خرج منه كان كافراً)) يقول: ((... وكالشجرة الزيتون لا شرقية ولا غربية التي بورك زيتها، النبي أصلها وعلي فرعها ونحن والله ثمرة تلك الشجرة فمن تعلق بغصن من أغصانها نجاة، ومن تخلف في النار هوى)). ويمكن توضيح الثنائية الضدية بالمخطط:

	تضاد	
تعلق ←	تخلف	
توافق	توافق	
	تضاد	
نجا ←	هوى	

الله

أهل البيت عليهم السلام ← أدخلنا ← أخرجنا → أهل البيت عليهم السلام

↓ طباق

فيما الله | الرسول صلى الله عليه وسلم | توافق

↓ أدخل ← أخرج →

الرسول صلى الله عليه وسلم توافق طباق

ويقول في تصويره للحق وللصواب الذي يكون مرادفاً للحق ((لا يعاب أحد بترك حقه، وإنما يعاب أن يأخذ ما ليس له، كل صواب نافع وكل خطأ ضار لأهله...)). يتضح الطباق في هذا الجزء من الخطبة على وفق المعادلة الضدية الثنائية التالية:

تضاد

ترك ← أخذ

تضاد

توافق صواب ← خطأ

تضاد

نافع ← ضار

----- توافق -----

وفي موضع آخر يصور الإمام عليه السلام قرب الله سبحانه وتعالى من العبد وبعده عنه على وفق إيمانه والتزامه ((فوق كل شيء علا، ومن كل شيء دنا فتجلى لخلقه من غير أن يكون يرى وهو بالمنظر الأعلى)).

تضاد

الله

← دنا (من كل شيء (تحت))

علا (فوق)

توافق

توافق

تضاد

← من غير أن يُرى

تجلى (ظهر)

بل إن المعادلة تحتوي على التضاد في كل عناصرها، فمن المعلوم أنه كلما علا الشيء قلت رؤيته أو قل ظهوره أو قل تجليه للنظر، والعكس صحيح، لكن هذه الرؤية تتحدد بالشيء وزمان المحسوس والمادي والمحدد بإطار وزمن ومكان، لكن رؤية الله سبحانه وتعالى تتحدد من خلال بصيرة المؤمن، فالله، وإن لم يحدده إطار محدد فإنه في آياته متجلٍ لخلقِهِ. وهكذا كلما زاد يقين المرء زادت رؤيته لله.

ولا يمكن عرض كل الثنائيات الضدية في الخطب لكثرتها من جهة ولسهولة التقاطها من قبل المنتقي من جهة أخرى، ولتظل متعة اكتشاف هذه الثنائيات والظواهر الأخرى بعامية محل اهتمام الباحث والدارس. ونؤكد أن ظاهرة الثنائيات الضدية (الطباق) تكررت أكثر من ثلاث وستين مرة.

رابعاً: التوازي

يعد التوازي أداة رئيسة في نسيج اللغة تضمن دوام الحالة الشعرية في الذاكرة^(١٦). ومن الملاحظ على النثر اعتماده كثيراً من البنيات المتكئة على انزياحات أسلوبية. ذلك لأن بنيات الشعر تحمل كثافة لغوية محكومة بالوزن والقافية عكس النثر الذي يكون نصه مفتوح الأطر ولا سيما إن كان النص النثري مرسلًا، لذا لجأ

المبدعون في النثر إلى صياغة أسلوبه الفني الإبداعي المؤثر على وفق ما يحقق لهم دوام التواصل مع الفكرة المحورية المتأزرة مع تلك الانزياحات الأسلوبية. ومن الملاحظ المهمة على خطب الإمام الحسن عليه السلام تظهرها على وفق تلك الانزياحات الأسلوبية التي أشرنا إليها، ومنها التوازي ليخلق جواً متكاملًا من الإبداع العرفي القائم على الموضوع والأسلوب.

فتقنية التوازي هذه ستكشف عن تمظهرات أسلوبية وانزياحات، وتبلور حبكة بنائية سيعالجها هذا الجزء من البحث. فلو تتبعنا قوله في الخطبة الرابعة: ((أفقه من تفقه ... أعدل من تعدلون ... أفضل من تفضلون ... أوفى من تبايعون))

وجدنا أن النص قام على تكرار صيغة معينة هي صيغة فعل التفضيل وإذا حولنا الجمل إلى تركيب نحوي نجده هكذا

فعل التفضيل + اسم موصول + فعل مضارع (مفرد) غائب
 فعل التفضيل + اسم موصول + فعل مضارع (أفعال خمسة) حاضر
 فعل التفضيل + اسم موصول + فعل مضارع (أفعال خمسة) حاضر
 فعل التفضيل + اسم موصول + فعل مضارع (أفعال خمسة) حاضر

فهذا الإلحاح «على وظيفة نحوية ينتج لنا توازياً دلالياً. إن هذه السمة في التوازي تجعله مهيمناً نصياً أساسياً»^(١٧). وقوله في الخطبة نفسها ((فقرّب منه وهم متباعدون ... وصلى معه وهم مشركون ... وقاتل معه وهم منهزمون ... وبارز معه وهم محجّمون ... وصدقه وهم يكذبون))

لقد كتبنا هذا النص على هذه الشاكلة ليتضح التوازي التركيبي والصوتي والدلالي فلو أرجعنا الجمل إلى أصولها التركيبية النحوية وجدناها على هذا النحو:

فعل ماضي + جار ومجرور + جملة أسمية مكونة من مبتدأ وخبر
 فعل ماضي + جار ومجرور + جملة أسمية
 فعل ماضي + جار ومجرور + جملة أسمية
 فعل ماضي + جار ومجرور + جملة أسمية

فهذا التكرار الملح على صيغة نحوية قاده إلى تركيز فكرة الخطبة، وموضوعه المحوري. إذن فأهم العناصر المكونة للتوازي هي تلك «البنى المتكئة على التركيب النحوي لأنها تعين على تحديد السمات النحوية الأساسية في اللغة وأنظمتها وتعين على فهم أبعادها الدلالية والتعمق في الفكر اللغوي لأي مجتمع من المجتمعات»^(١٨).

ومن اللافت للنظر أن هذا التوازي التركيبي استتبعه اتكاء على التقابل والطباق الذي يؤدي بدوره وظيفة إيقاعية دلالية وهو ما أشرنا إليه في دراستنا للثنائيات الضدية فأنت تلاحظ الطباق بين (صلى ← ومشركون) و(قرب ← متباعدون) و(قاتل ← منهزمون) و(بارز ← محجمون) و(صدق ← يكذبون). فمثلما تحدد التوازي من خلال التركيب النحوي فإنه تحدد من خلال أخذ «معناه من داخل التناقضات التي يثيرها فيقيم من وسط التناقض والتداعي حركة إيقاع خاصة»^(١٩).

فالتوازي في هذا النص عبر عن الانحراف الأسلوبي وليس المساواة أو المطابقة الدلالية وهو يعبر عن تزامن الأشياء وتجاورها في المكان، الذي يؤدي وجوده بهذا الشكل إلى خرق أنظمة اللغة الاعتيادية^(٢٠) ومثل هذا التآزر والتلاحم بين البنيات الأسلوبية للتوازي نلاحظ قوله عليه السلام ((فارقكم رجل ما سبقه الأولون ولا يدركه الآخرون)). فالنص قائم على توازٍ تركيبية طباقية صوتية.

فالنص مكون نحويًا من أداة النفي + فعل ماضي + الفاعل (ثنائية ضدية)

أداة النفي + فعل مضارع + الفاعل (ثنائية ضدية)

والفاعل شكل مع الفاعل الثاني (طباقاً) مكوناً ثنائية ضدية (الأولون ≠ الآخرون) فحقق لنا التوازي تعادلاً معنوياً وإيقاعياً، ودلالياً. إذ أن النظم الفني مكون من مجموعة عناصر متألّفة فلا «يظهر في الجملة عنصر مستقل بل كل عنصر يستدعي عنصراً آخر أو عناصر أخرى، إما لتحقيق تعادل إيقاعي، أو لتحقيق تعادل معنوي وفي الغالب التعادلين معاً»^(٢١). وإذا ما تابعنا قوله ﷺ في أثناء تحميد الله في إحدى خطبه: ((الدائم بغير تكوين، القائم بغير كلفة الخالق بغير منصفة، الموصوف بغير غاية، المعروف بغير محدودية، العزيز لم يزل في القدم)).

فإننا نلاحظ توازياً تركيبياً دلالياً من خلال إلحاحه على صيغ بعينها تتمثل في:

الدائم → اسم فاعل + حرف الجر الباء + الاسم المجرور غير + المضاف إليه

القائم → اسم فاعل + حرف الجر الباء + الاسم المجرور غير + المضاف إليه

الخالق → اسم فاعل + حرف الجر الباء + الاسم المجرور غير + المضاف إليه

الموصوف → اسم مفعول + حرف الجر الباء + الاسم المجرور غير + المضاف إليه

المعروف → اسم مفعول + حرف الجر الباء + الاسم المجرور غير + المضاف إليه

العزيز → صفة مشبهة + حرف الجر الباء + الاسم المجرور غير + المضاف إليه

وهكذا فإن الشكل التركيبي يمكن النظر إليه بوصفه المنطلق الذي تتحدد من خلاله مختلف مقولات التوازي الصوتية والتركيبية والدلالية في النص^(٢٢).

وعلى الرغم من عدم انتهاء التواصل بمقطع صوتي متجانس إلا أن التوازي التركيبي النحوي أضفى على النص انزياحاً أسلوبياً، ولم يتحقق هذا التوازي عند هذا النص فقط. بل عمد الإمام إلى تكرار الأسلوب في الخطبة نفسها عندما يقول ((ذهلت العقول لعزته خضعت الرقاب لقدرته)).

فاجتماع التناسب التركيبي عن طريق الوحدات المؤلفة لذلك التوافق: (الفعل + الفاعل + الجار والمجرور) ليتحد هذا التوافق التركيبي مع أسلوب بديعي إيقاعي هو السجع بين لفظتي (لعزته = لقدرته).

خالقاً هذا الاتحاد توازياً تركيبياً إيقاعياً صوتياً دلاليّاً. فلو قمنا بتقطيع المتواليات المتوازية للاحتفاظنا أن كل متوالية تتكون من سلسلتين تسيران على نسق إيقاعي موحد^(٢٣). ومن أمثلة التوازي الذي يتحد فيه أكثر من تقسيم سلسلي قوله: ((إن القبور محلتنا، والقيامة موعدنا، والله عارفنا)) فاجتمع التركيب النحوي مع السجع ليخلق توازياً تركيبياً صوتياً. وقوله: ((كنتم تتوجهون معنا، ودينكم أمام دنياكم، وقد أصبحتم الآن ودنياكم أمام دينكم، فكنا لكم وكنتم لنا، وقد صرتم اليوم علينا... فأما الباكي فخاذل، وأما الطالب فثائر)).

ففي النصف الأول من النص نجد توافقاً تركيبياً أسلوبياً صوتياً من خلال الاندماج بين الاتحاد التركيبي ((دينكم أمام دنياكم وأصبحتم الآن ودنياكم أمام دينكم)) مع أسلوب القلب الذي هو أحد فنون البلاغة والتي تدل على اقتدار في الكلام. ومال فيه الإمام الحسن عليه السلام إلى الصنف الأول من أقسامه والذي هو التبديل بعكس الكلمات في نظام ترتيبها.

ويستمر الإمام باستخدام هذا الأسلوب بقوله ((وكننا لكم وكنتم لنا)). ومن الجدير بالذكر أن هذا الأسلوب وإن كان يدل على اقتدار وتملك لخاصية البلاغة، إلا أن الإمام عليه السلام هنا أراد أن يبين دلالة موضوعية وبيان مواقف القوم المتذبذبة فساعده هذا الأسلوب على إبراز الفكرة وتكثيفها مع أسلوب بلاغي إيقاعي محققاً توازياً على صعيد النص. ومن الأمثلة على ذلك الاندماج الكلي بين الأساليب قوله عليه السلام بعد قضية التحكيم في وقعة صفين ((... وإنما بعثنا ليحكما بالقرآن دون الهوى،

فحكماً بالهوى دون القرآن)). فهناك توازٍ تركيبى إيقاعي دلالي حققه تآزر عناصر وأساليب متعددة.

وهكذا رصد التوازي الانحرافات الأسلوبية التي حدثت على صعيد النص الحسنى متآزراً مع أساليب وبنى أخرى في إبراز الفكرة المحورية الموضوعية للخطب الحسينية.

الخاتمة

وبعد... فقد تم بحمد الله ومنه جمع الخطب ودراستها بحسب ما شكلت من ظواهر وانزياحات أسلوبية، وقد تم التوصل لنتائج كثيرة يمكن أن تشكل خاتمة لهذا البحث منها:

١. إن عملية الجمع لم تكن سهلة أو يسيرة بل حفتها صعوبات جمّة منها قلة المصادر المتوفرة، واختلاف الرواة والمؤرخين في إيراد الخطبة، وبعضهم يدرجون خطباً عديدة تتشابه لفظاً وموضوعاً، وجعلها خطباً متعددة مما جعل المهمة يشوبها الكثير من الصعوبات.
٢. تنوعت مصادر جمع الخطب فكان تخريجها من بطون كتب التاريخ ومصنفات السير والطبقات وكتب الأحاديث وكتب التفاسير وكتب الأدب.
٣. شكلت الخطب الحسنية بصورة عامة نهج أهل البيت عليهم السلام في إيصال رسالتهم للناس بأسلوب يكشف عن اعتلاء ناصية البلاغة واللغة وقوة العارضة.
٤. قامت الخطب على مضامين فكرية وموضوعية محددة قلما تجاوزها الإمام الحسن عليه السلام وهذه المضامين تركزت في إثبات الحق العلوي بالخلافة من خلال عرض شخصية الإمام علي عليه السلام وما كانت تنطوي عليه من سجايا وخصال، وما قال الله تعالى فيه وما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنهم خصال وصفات أولاده ولا سيما الحسن عليه السلام صاحب هذه الخطب.

٥. تباين البناء العام للخطب فقد سارت في بعضها على نحو ما سارت عليه خطب مشاهير الخطباء عصره أو قل خطب الرسول ﷺ من تكامل في البناء من حيث بدؤها بحمد الله والثناء عليه، واللازمة اللغوية (أما بعد) وبعد ذلك الدخول إلى موضوع الخطبة. وكانت بعض الخطب اخترلت الجزء الأول فلم نجد التحميد أو الثناء وإنما قد بدأها بعبارة (أما بعد). لتؤكد هذه البداية أن هناك بترًا للجزء الأول من قبل الرواة لعدم تشكيله أهمية لديهم أو ضياع الجزء الأول منها.

٦. وقد يكون بناء الخطبة خالياً تماماً من الجزء الأول أو من عبارة (أما بعد) ليكون الموضوع مباشراً، واستنتجنا أن هناك أسباباً لمثل هذا البناء منها طبيعة الموضوع والموقف أو إهمال الرواة لهذين الجزأين أو ضياعهما بعد العهد بين الخطب وعصر التدوين.

٧. شكلت خواتيم الخطب عنصراً متآزراً في شد البناء الوحدوي للخطب الحسينية، إذ نلاحظ أنها كانت جزءاً لا يتجزأ من الموضوع الذي يعالجه، وقد تباينت الخواتيم فقد يختتم الإمام ﷺ خطبته بنص قرآني أو نبوي أو شعري وقد يختتم بحكمة وموعظة أو دعاء أو قد يجعل نهايتها مفتوحة لتتحد مع البناء العام للخطبة.

٨. شكل الجدل والاحتجاج والمنطق أحد الظواهر الأسلوبية التي قامت عليها الخطب بحسب ما يتطلبه الموقف لذلك كان أسلوب التضمين والاقتراس واحداً من الأساليب الفنية التي اتكأت عليها الخطب. وإن لم يكن الاقتراس في مجمله لأجل إقامة الحجة والدليل، وإنما مهد الاقتراس في الجزء الأول من بناء الخطب أو قد يختتم بهذا الاقتراس إلا إنه في الغالب جاء لأجل إقامة الحجة

والمجادلة. وشكل الاقتباس القرآني المتكأ الأول من اقتباسات الخطب ومن ثم الاقتباسات من الأحاديث النبوية الشريفة وبعد ذلك الشعري وقد علل البحث سبب هذا الشيوع القرآني أن النص القرآني غير قابل للتحريف وأن مناسبات نزول النص الشريف معروفة للناس في حين أن النص النبوي الشريف على أهميته تعرض للدرس والتحريف أو يوجهه الرواة لأكثر من شخصية بحسب السياسات والأهواء. لذلك كان الإمام الحسن ذكياً في اعتماده النص القرآني في إقامة حججه ودلائله.

٩. شكل الطباق ظاهرة متآزرة مع هيكلية الخطب في إحكام وشد البناء الموضوعي والدلالي والإيقاعي للخطب وكانت أغلب الثنائيات الضدية تدعو إلى إقامة موازنات عملية ودينية واجتماعية ونسبية بين أهل البيت عليهم السلام وغيرهم.

١٠. من الظواهر الفنية والتي شكلت انزياحات أسلوبية، التوازي واتخذ التوازي من التركيب النحوي المتكامل والسجع ظاهرة إيقاعية تركيبية وشكل التوافق التركيبي مع الثنائيات الضدية ظاهرة للتوازي مرة ومع السجع مرة أخرى ليعطي دلالة للتوازي الإيقاعي والموسيقى والدلالي.

.....

١. سورة الأنبياء ٧.
٢. من حديث الشعر والنثر، د. طه حسين، دار المعارف، مصر، ط ٩. دون تاريخ، ص ٢٦.
٣. يراجع في بناء الخطبة: الخطابة في صدر الإسلام، محمد طاهر درويش، دار المعارف، مصر، دون طبعة، ١٩٦٨، الجزء الأول والجزء الثاني.
٤. الاستهلال وفن البدايات في الأدب العربي، موسى النصير، القاهرة، ١٩٨١ ص ١٠.
٥. مطلع القصيدة الموضوع: (عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء) ينظر ديوان حسان بن ثابت، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، طبعة مطبعة السعادة، مصر، ١٣٣١ هـ، القطعة

- رقم (١).
٦. سورة النساء ٣٤.
 ٧. التلخيص في علوم البلاغة: الإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن الشافعي المعروف بالقزويني ت ٧٣٩ هـ. تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩٧ م. ص ١١٤.
 ٨. نفسه ص ١١٥.
 ٩. علم البديع، دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة العربية ومسائل البديع. د. بسيني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ط ٢ القاهرة ١٤٢٥ هـ. ص ٢٢٥.
 ١٠. الإيضاح / ج ٢ / ٥٧٥.
 ١١. كتاب الصناعتين في الكتابة والشعر: أبو هلال العسكري تحقيق: د. مفيد قمحة، دار الكتب العلمية بيروت، ط ٢، ١٩٨٩، ص ٣٠٧.
 ١٢. الإيضاح / ج ٢ / ٣٣٤.
 ١٣. انظر مثلاً الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي العلوي، مراجعة وتدقيق محمد عبد السلام شاهدي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٩٩٥. ج ٢ / ٣٣٧ والعمدة في محاسن الشعر وآدابه / ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار الجليل، بيروت، ط ٤ / ١٩٧٢ ج ٢ / ٢٥.
 ١٤. بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، دراسة تحليلية نقدية د. إبراهيم سلامة، مطبعة أحمد علي منير، القاهرة ط ٢، ١٩٩٢، ص ١٢٥.
 ١٥. بحث للمؤلفة منشور في أعداد مجلة كلية الآداب الجامعة المستنصرية العدد ٥٠ لسنة ٢٠٠٩.
 ١٦. التوازي في القرآن الكريم، وداد مكاوي حمود الشمري. رسالة دكتوراه مقدمة إلى مجلس كلية التربية للبنات جامعة بغداد، بإشراف د. شجاع مسلم العاني، و د. حيدر لازم مطلق سنة ٢٠٠١ ص ١١.
 ١٧. بحث للمؤلفة منشور في أعداد مجلة كلية الآداب الجامعة المستنصرية العدد ٥٠ لسنة ٢٠٠٩.
 ١٨. شفرات النص، بحوث سيمولوجية في شعرية القص والقصيد. د. صلاح فضل دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة. ط ١ ١٩٩٥. ص ١٠٨.
 ١٩. البنى الإيقاعية في مجموعة محمود درويش (حصار لمذبح البحر). بسام قطوس مجلة أبحاث اليرموك ٩م، ١٤، لسنة ١٩٩١. ص ٦١.
 ٢٠. التوازي في القرآن الكريم ص ٣.
 ٢١. التوازي في القرآن الكريم ص ١١.

٢٢. اللغة الشعرية دراسة في شعر حميد سعيد / محمد كنوني دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد
١٩٩٧ ص ١١٩.

٢٣. القلب وهو من جملة أفانين البلاغة وفيه دلالة على الاقتدار في الكلام والانحراف فيه ويأتي
على أوجه خمسة:

أ. التبديل

ب. قلب البعض

ج. قلب الكل من الكلمة

د. المجنح

هـ. المستوى. أنظر الطراز ج ٣ / ٥٣ - ٥٤.